

## من التحوّل الإتيقي إلى التحوّل البيولوجي

تفاحي فتيحة؛ مونس بخضرة

جامعة د.الطاهر مولاي سعيدة، amenfati80@yahoo.fr

جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان، mounisz@live.fr

تاريخ الإرسال: 2017/06/29؛ تاريخ القبول: 2018/06/01

### Abstract

As long as the pioneers of human dream of excellence, and seek to acquire the best biological characteristics and then the inheritance of generations to come, where the ideas of philosophers and their theories about this aspiration, and did not stop at the end of the theory of the philosophy of the hero, but to work on the embodiment in the field of medicine and biology, A huge biological revolution that enabled its applications to realize this dream. Philosophical theories turned into action and practice. Although the image of "superman" had not been completed when Nietzsche, the biological revolution especially in the field of genetic engineering world has turned philosophical theories into reality within the laboratories of scientists, here is today's idea of the perfect man, "Superman" achieved by contemporary biological revolution. Through the achievements made through the human genome, which aims biologists and doctors from behind to eugenics project.

**Keywords:** Transformation; Higher Human; eugenics; Ethics; Biological Revolution; Bioethics; Genetic Engineering.

### ملخص

طالما رواد الإنسان حلم التفوق والتميز، والسعي إلى اكتساب أحسن الخصائص البيولوجية ومن ثم توريثها للأجيال اللاحقة، حيث عبّرت أفكار الفلاسفة ونظرياتهم عن هذا التطلع، ولم يتوقف الأمر عند

حد التنظير لفلسفة البطل، بل تعداه إلى العمل على تجسيده في ميدان الطب والبيولوجيا، في ظل ثورة بيولوجية هائلة مكنت تطبيقاتها من تحقيق هذا الحلم. وبهذا تحوّلت النظريات الفلسفية إلى فعل وممارسة.

وإن كانت صورة "الإنسان الأعلى" لم تكتمل عند نيته، فإن الثورة البيولوجية التي شهدتها العالم خاصة في مجال الهندسة الوراثية حوّلت النظريات الفلسفية إلى واقع داخل مخابر العلماء، وهاهي اليوم فكرة الإنسان الكامل "السوبرمان" تتحقق، من خلال الإنجازات المحققة في ظل مشروع الجينوم البشري الذي يهدف من وراءه علماء البيولوجيا والأطباء إلى تحسين النسل.

**الكلمات المفتاحية:** التحوّل؛ الإنسان الأعلى؛ تحسين النسل؛ الإتيقا؛ الثورة البيولوجية؛ البيو إتيقا؛ الهندسة الوراثية.

## مقدمة

أثارت نظريات فلاسفة الأنوار أمثال فولتير ولوك وروسو في مجال السياسة إعجاب الناس فاستأنسوا بها زمناً؛ لأنها أقامت أفكارها على أساس عقلي مصدره طبيعة الإنسان وقواها، وفي مجال الأخلاق عبر فلسفة كانط الأخلاقية التي حلقت بهم في سماء القانون الأخلاقي، لكنهم استيقظوا على نداء يقوض دعائم هذه المشاريع التي أرست مبادئها على العقل والواجب والأخلاق. إنه نداء نيته الذياخترق من خلاله المقدس، المطلق، الكلي، وأطاح بالثنائيات وعقلنها القيم، وكسر الطابوهات وأعدم مفاهيم عدّة: الفضيلة، الروح، الحقيقة والإله،

وعموت الإله تحل العدمية، فلم يغب عن تحليل نيتشه حالة العدمية وفراغ المعنى التي يجد فيها الإنسان ذاته. وهنا يحضر الإنسان الأعلى "السوبرمان" لتخليص البشرية من معاناتها.

ولازالت هذه المعاناة تلاحق الإنسان المعاصر الذي مسّه التشيء، وتغيرت العديد من ملامحه القيّمية، فوجد في ظل ثورة بيولوجية هائلة ومتسارعة، آمالا لتحقيق سعادته والتخفيف من آلامه، وفتح أمامه باب الممكنات على مصراعيه، لكن في المقابل خلّفت وراءها تساؤلات إتيقية، قانونية ودينية؛ تتعلق بهويّة وكرامة، وإنسانية الإنسان. هل كان للتحوّل الإتيقي داخل الخطاب الفلسفي أثر على التحوّلات الجديدة التي شاهدها الهندسة الوراثية والطب المعاصر؟ وكيف استطاعت الثورة الجينومية أن تستسيغ التنظير الفلسفي، وتحوّله إلى واقع يحقق طموح علماء البيولوجيا وآمالهم في تصنيع نماذج جديدة؟

### نيتشه: نحو الإنسان المتفوق

يعني إعلان نيتشه موت الإله أن «الحياة الإنسانية لم يعد لها أية خلفية أو جذور ترتكز عليها، ولم تعد تشملها حكمة تقع فيما وراء حدود ذاتها، ولم تعد توجهها معايير تدعي لنفسها المشروعية المطلقة.» (صفاء عبد السلام. 1999: 360) وعموت الإله ترسم بداية لتسامي البشرية نحو عنصر التفوق، لذلك نفهم لماذا يشكل موت الإله محطة أساسية في مسيرة الإنسان المتفوق يقول زرادشت: «لقد مات جميع الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق، فلتكن هذه إرادتنا عندما تبلغ الشمس الهاجرة» (نيتشه، هكذا تكلم زرادشت. 1938:

65) يتضح من خلال صيحة زرادشت أنها بداية لفجر جديد ونور جديد يحمل لواءه الإنسان الأعلى لذلك « إلى الأمام أيها الراقون، الآن أن للمستقبل الإنساني أن ينبثق، ويظهر، فالإله قد مات وحن مولد الإنسان المتفوق الذي نرجو مجيئه» (Nietzsch Friedrich. 2012 : 423) فالحديث عن الإنسان الأعلى هو في الأصل حديث عن الجنس البشري، ولا يجب أن ينحصر هدف الوجود الإنساني في الرغبة في تحقيق سعادة الإنسان، لكن يجب العمل على تكثيف كل القوى للارتقاء بالحياة. مادامت القوة أساس كل القيم، فهي أيضا سبيل لبعث الإنسان الأعلى لذلك ينبغي على الإنسانية النهوض بأقوى فرد، وخلق نوع جديد، نوع متفوق فوق الإنسانية «لقد أتيتكم بنبا الإنسان المتفوق.. فلتتجه إرادتكم إلى جعل الإنسان المتفوق معنى لهذه الأرض وروحها» (نيتشه، هكذا تكلم زرادشت. 1938: 6) فلا غرابة من دعوة نيتشه للإنسان المتفوق؛ لأن سبقتها دعوات لتحسين النسل والانتقاء البشري، تبناها فلاسفة وبيولوجيين سابقين، كان لها أثرها الجلي في فلسفة نيتشه. ومن أبرز من تأثر بهم تشارلز داروين Charles Darwin (1809-1882) في كتابه الشهير "أصل الأنواع" واعتبر فيه فكرة التطور بمثابة عمل ثوري، ومن الإنصاف اعتباره مؤسس فلسفة البيولوجيا الحديثة. لم يقتصر تأثير النظرية التطورية على العقل العلمي، بل امتد تأثيرها إلى الفكر الفلسفي الذي يبدو جليا في فلسفة نيتشه «كان نيتشه طفل "داروين" وأخا "لبسمارك" أو بعبارة أوضح فقد تأثر إلى مدى واسع بنظرية داروين، وسياسة بسمارك، فقد اعتاد أن يهاجم الذين أثروا عليه أقوى الأثر. لقد كانت طريقته اللاشعورية في تسديد ديونه لمن

استمد منهم معظم أفكاره وفلسفته«(ديوارنت ول، 1988: 504) لأنه سرعان ما عارض داروين، كما فعل مع أصدقائه السابقين أمثال "ريتشارد فاغنز" و"شوبنهاور".

### تطورية (أنظر الشرح1) داروين ضد نظرية الخلق:

نظرت الكنيسة إلى الإنسان على أنه كائن خلق على صورته الإنسانية، ما يسمى "بنظرية الخلق" وتعني «بدء وجود الشيء في الكوزمولوجيا المسيحية، غالبا ما يعني الخلق قيام الله بإيجاد شيء من العدم». تدهوندرتش، (د-ت): (335) من هذا المنطلق تنظر هذه النظرية إلى أن الإنسان خلق على صورتها الأصلية وحافظ عليها لذلك «كان هذا التصور يمثل "حقيقة" العصر وكل من أراد إعادة النظر فيه يتعرض للاثام بالبدع، ويجد نفسه في مواجهة محكمة التفتيش الدينية على أساس شك في عقيدته، وقد أحرق بعض الناس لثهم أقل من هذه خطورة»(جان شالين، 2005: 14) فالخلق بدأ تاما وكاملا؛ على هذا الأساس فالكائنات تحافظ على أصلها الأول، استمر هذا التصور مع البروتستانت في أمريكا، ومقابل هذا التصور رفض داروين فكرة مركزية الإنسان في الكون مواصلا ثورة "كوبرنيك" ضد فكرة الإنسان محور الكون، فأسس لفكرة التطور مقابل فكرة الأصل المشترك.

عرف الإنسان تطورا وارتقاء إلى حالته الحالية بسبب التغير الذي يظهر على أجيال النوع خلال سنين طويلة، كل الكائنات تنقرض ماعدا الأصلح منها للبقاء ورد فيكتاب أصل الأنواع لداروين أن الانتقاء الطبيعي: «قوة مستعدة باستمرار للعمل، وهي أقوى بشكل غير قابل

للقياس من جهود الإنسان الضعيفة، مثل تفوق أعمال الطبيعة على أعمال المهارة» (داروين تشارلز، 2004: 137) لا مجال للضعفاء وفق الانتخاب الطبيعي للكائنات ففكرة "البقاء للأقوى" كانت من الأسباب الرئيسية التي ساعدت على إحداث تغيرات تطورية؛ لأن من خلال قوانين التطور يتم انقراض بعض الأنواع وبقاء البعض الآخر ونشوء سلالات جديدة بصفات جديدة ويصبح كل ميلاد لإنسان جديد هو تجربة جديدة ومغايرة للتجارب السابقة.

### نيتشه وداروين: نقاط عدم التلاقي

رفض نيتشه فكرة تنازع البقاء الداروينية، واعتبرها تنازع القوة والسيطرة «إن إرادة حفظ الحياة تعبير عن ضائقة ومأزق، وعن تضيق لغريزة الحياة الجوهرية الحقيقية التي هي التوسع في القوة بل أن هذه الغريزة غالبا ما تجعل حفظ الحياة في خطر... وليس تنازع البقاء إلا حالة شاذة وتضييقا مؤقتا على إرادة الحياة» (بدوي عبد الرحمن، 1975: 225-226) وأهم من يعتقد أن غريزة البقاء هي الأساسية والأصلية في الكائن العضوي" فالحي يريد وقبل كل شيء، أن يفسح المجال لقوته، ذلك أن الحياة نفسها هي إرادة القوة، ولا شيء آخر» (البكاريكمال، 2000: 99) صرخ زرداشت من أعلى الجبل قائلا: «لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة لأن؛ في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف، فإرادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضا لتتحكم فيمن هو أضعف منها وتلك هي اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها» (نيتشه فريدريك، 1938: 97).

مفهوم إرادة القوة يتعدى المعنى الضيق لمفهوم إرادة الحياة بلغة شوبنهاور، فالهدف ليس الحياة وإنما الحياة بقوة وشرف، على هذا الأساس وصف «مذهبه في تنازع البقاء مذهبياتلاً إذا كان يريد أن يفسر به جوهر الحياة والوجود. فليست الحياة البقاء، فتلك حالة شاذة، وإنما تنازع القوة وتنازع السيطرة» (بدوي عبد الرحمن. 1975: 225) إرادة القوة هي أساس الوجود، وتفسر كل مظاهره باعتبارها دافعا لكل نشاط إنساني اجتماعي، ثقافي وفني، على هذا الأساس يصرح: «العالم منظور إليه من الداخل، العالم معرّفا ومعينا بطبعه المعقول هو حقا إرادة القوة ولا شيء آخر» (Nietzsch . 1971 : 63) فالحياة من منظور نيتشه لا تنحصر في المحافظة على البقاء، بل هي نمو بلا انقطاع، ومزيد من القوة، ويتأتى كل ذلك بالنضال وتحمل الأخطار والمصاعب.

يقول الإنسان التراجيدي «نعم» حتى في وجه المعاناة الشديدة: يؤهله لذلك قوته الكبيرة وغناه الوافر وتأليهه للحياة. «نيتشه. إرادة القوة، 2011: 363) فالتراجيديا الإنسانية في تصور نيتشه ليس المقصود بها المأساة البشرية في معاناتها، إنما تعني النضال والكفاح لمزيد من القوة. ففي العبد إرادة أن يصير سيّدا على من هو أضعف منه، فإرادة القوة تظهر بواسطة الكفاح، وتبحث دوما عن ما يقاومها.

لعل هذه الرؤية جعلته يرفض فكرة "تنازع البقاء" معتبرا «أن خطأ داروين يتصل به خطأ "سبنسر"؛ لأن الحياة ليست تلاؤم طبيعة الفرد وأحواله الداخلية مع الأحوال والطبيعة الخارجية، إنما هي إرادة القوة التي تخضع لنفسها من الداخل ما هو "خارجي" وتستولي عليه

وتدخله في باطنها وتمتصه» (بدوي عبد الرحمن، 1975: 226) هذا يعني بعث صورة جديدة من الإنسان يمتاز بصفات تختلف عن تلك التي يتصف بها عامة الناس، الإنسان الأعلى فرد متفوق يرتفع بشجاعته من وسط الشعب بفضل تربيته لا بفضل الانتخاب الطبيعي لذلك الإشراف على التربية والتعليم وتحسين النسل، أمر ضروري إذا أردنا أن نخلق الإنسان الأعلى، فلا ندع الأمر للطبيعة؛ لأنها لا تنصف المتفوق بل تحابي الضعفاء والمرضى، وتعارض أفاذ الرجال وصفوتهم (ديوارنت ول، 1988: 531) إذا كانت الحياة في نظر داروين تطور نحو الأفضل بموجب الانتخاب الطبيعي، حيث منحت الطبيعة ما يؤهل بعض الكائنات لحفظ النوع، مقابل حرمان أنواع أخرى أقل تطوراً من هذه الهبة، فإنها بالنسبة لنيته لا وجود للحظة محددة يسير بمقتضاها هذا التطور من الأفضل إلى ما هو أفضل منه، بل هناك صراع لإرادات القوى بين الأقوياء والضعفاء.

### من الإنسان الأعلى التشوي إلى مشروع الجينوم البشري

بالرغم من أن نيته كان صريحاً في نقده للروح الأخلاقية التي سادت عصره، بل وفي نقد الروح الأخلاقية بوجه عام، إلا أن أساس نقده كان ذا صبغة أخلاقية، فهو وإن تحامل على قيم عصره، واشتمز منها ووصفها بالانحطاط، معتقداً أن كل أخلاقية هي تكبير لقوى الإنسان الفاعلة فلا شك أن دوافع أخلاقية، نفسية واجتماعية قوية كانت وراء نقده، بالفعل كان يستهدف بلوغ نوع متميز من الإنسان يؤمن أنه سيظهر في المستقبل يحمل ألواح قيم جديدة تتعالى عن كل



تقويم قديم (زكريا فؤاد، 1975: 394-395) وهي أخلاق السادة والنبلاء بما تحمله من قوة وثراء وعطاء، مقابلقيم العبيد التي أوجدها الضعفاء والعاجزون وتشمل كل فضائل الصبر، والتواضع والرحمة، وإنكار الذات وإماتة الشهوات والسيطرة على الجسد .. وكل وجوه الضعف والانحطاط، حصرها بالعبيد أما إرادة القوة هي مكنن الأحكام التقويمية، وعلى هذا الأساس دعا إلى دين جديد -إلهه الإنسان الأعلى- الذيلا علاقة له بالآله المسيحي أو بالقيم التي يجسدها، كالسلام والمحبة والمساواة ليختفي بذلك الشعور بالخطيئة ويتخلص الإنسان من إحساسه بالندم، والخوف من العقاب «لم يكن من الواجب العودة بفكرة الذنب إلى العلة الأولى للعالم» (نيتشه، إرادة القوة 2011: 78) يعترض على المسيحية بسبب قبولها أخلاق العبيد وقيمها و الترويج لها؛ لأن الأديان أسطورية في اعتقاده ذات قيم وهمية، اخترعها الضعفاء لحرمان الأقوياء من حقهم في الاستفادة من عملية التطور البيولوجي.

تاريخ الأخلاق كما رسمه نيتشه، هو تاريخ للنزاع المستمر بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد ومحاولة كل منهما فرض السيطرة على الآخر، فالسادة يحتقرون العبيد ويبيحون كل أشكال التعذيب والعنف، وكل ذلك بغية إخضاعهم لمنطق الأقوياء.

قام نيتشه بقراءة جينيا لوجية لأصل القيم المتعارضة، مع ما كان سائدا من اعتقاد بأن الأشياء على درجة من الكمال مند بدايتها، هدفه من وراء التحليل الجينيا لوجي، نقد جذري لما كان سائدا من قيم داخل الفكر الغربي، وتساءل حول اصل هذه القيم، من قبيل الخير والشر

وعن «الظروف التي يبتدعها الإنسان فيها، وعمّا تخفيه في حقيقتها، ذلك أن القراءة الجنيولوجية التي اعتمدها نيتشه لا تتبع منظورا زمنيا، يصبو إلى تبرير الوعي البشري انطلاقا من تشكيلانه التاريخية المختلفة والمتصاعدة، التي تصل من خلاله إلى المطلق، على النحو الذي نجده عند هيجل\* إنما هي قراءة شاكّة وسيئة الظن، قراءة تمارس أسلوب الكشف والفضح، والتعرية.» (بلعقروز عبد الرزاق، 2010: 54-55) هي محاولة من نيتشه لتجاوز الواقع الفكري والديني والاجتماعي السائد. لعل هذا ما دفع زرادشت إلى التصريح «إن أوفر الناس اهتماما في هذا الزمان يتساءلون عما يحفظ حياة الإنسان، أما زرادشت فهمّه أن يعرف كيف يتفوق الإنسان على إنسانيته» (نيتشه. هكذا تكلم زرادشت، 1938: 241)

ورغم مرضه - في بعض الأحيان - حيث كان فريسة للأمراض، وقتها ظل يتشوق إلى التمتع بالصحة، وحين يفتقدها يقول: «إلى الأمام، هكذا قلت لنفسي، فغدا تكون صحيح الجسم.. فكانت إرادة الصحة نفسها، وكان تمثيل الصحة وسيلتي إلى الشفاء» (بدوي عبد الرحمن، 1975: 115) ورغم كل آلامه ومعاناته الصحية إلا أنه أراد إنتاج كائن خال من الأمراض، وإنسان يتفوق على إنسانيته، ويتخلص من كل القيود الوراثية التي تكبل صحته ونشاطه، فهل لقيت صيحة نيتشه صداها في ظل ثورة بيولوجية فتحت آفاقا جديدة نحو الممكنات؟

### من التنظير الفلسفي إلى التطبيق العملي

إن التطور النوعي الذي عرفته العلوم الطبية والدراسات البيولوجية من خلال استخدام أحدث التقنيات عمل على تحقيق حلم

الإنسان الذي طالما رواده في التفوق والتميز، والسعي إلى اكتساب أحسن الخصائص البيولوجية، ومن ثم توريثها للأجيال اللاحقة، حيث عبّرت أفكار الفلاسفة ونظرياتهم عن هذا التطلع، ولم يتوقف الأمر عند حد التنظير لفلسفة البطل، بل تعداه إلى العمل على تجسيده في ميدان الطب والبيولوجيا، في ظل ثورة بيولوجية هائلة مكنت تطبيقاتها من تحقيق هذا الحلم. وبهذا تحوّلت النظريات الفلسفية إلى فعل وممارسة. لقول فيليب كيتشر Philip Kitcher - فيليب كيتشر (1947) فيلسوف إنكليزي معاصر متخصص في فلسفة العلوم- «كل شخص مسموح له بأن يمارس الیوجینا، مستغلا الفحوص الجينية المتاحة، بحيث يتخذ القرارات التناسلية التي يراها صحيحة.» (مات ريدلي: 362) غدا الطموح واقعا حققته تقنيات الاستنساخ، وطرق الإنجاب الجديدة في مجال الهندسة الوراثية، حيث غيّرت هذه الأخيرة الصورة النمطية لـ"تحسين النسل" التي سادت خلال القرون الماضية، إلى صورة جديدة لـ"یوجینا" معاصرة متحررة، ما يجعلنا نقول جازمين أن العلماء حققوا الطموح التنشوي ولم تعد العلوم الطبية والبيولوجية تقف عند حدود محاربة الأمراض ومحاولة الحد منها، بل تحول اهتمامها نحو الشخص السليم ليأخذ منحى النسالة، أي تحسين النوع الإنساني. «فبدل أن يحرص الطبيب مهامه في تخفيف الألم وشفاء المريض من مصابه، ذهب يبحث عن الأساليب الدعائية التي تجعل الأصحاء أكثر صحة، والأقوياء أشد قوة.» (روجيه جاويش، 2000: 22)

فالتطور الذي أفرزته الثورة البيولوجية تولدت عنه تقنيات جديدة مكنت من فك أسرار الخريطة الجينية وبالتالي تسهيل التشخيص

والوقاية والعلاج ففي «مجال العلاج بالجينات تخفيف آلام ومعاونة البشرية من الأمراض الوراثية المستعصية مثل بعض أنواع السرطان وأمراض نقص المناعة، إنتاج الأنزيمات والأمصال والبروتينات المهندسة وراثيا (سواحل عبد الفتاح، 2006: 30) فعلماء الهندسة الوراثية يهتمون بالعمل لإصلاح أو عزل الموروثات المتسببة في الأمراض «تهتم هذه الهندسة بتقنية خاصة نستطيع بفضلها أن نعزل الجزء المعيب أو المريض من الموروثات، أو أن نعالجه. وبذا نخضع الإنسان لبراءة التكنولوجيا ونتحكم جزئيا في الأجيال القادمة.» (محمود صبحي، فهمي زيدان. 1993: 150)

عمل مشروع الجينوم البشري على تحديد القاعدة الوراثية للإنسان التي تساعده على معرفة مدى إمكانيته للتعرض لمرض ما ومن ثم الوقاية منه، أي محاولة تعديل الجينات التي تتأثر بالأمراض لمقاومتها «وإنتاج الإنسان العملاق وكما نرى فإن تطبيق الهندسة الوراثية على الجنس البشري يقوم على فكرة التحكم في الجهاز الوراثي للإنسان، وبالتالي إمكانية برمجة الجنس البشري وفق تصميمات موضوعه سلفا» (البقصي ناهدة، 1993: 17) استطاع الخيال العلمي تجاوز حدود الواقع، وتوقعات العقل بعدما حوّلت تجارب العلماء وطموحهم الخيال إلى حقيقة فاقت كل التصورات ولعل أبرز إنجازاتهم الاستنساخ.

### الاستنساخ في المخيال الأدبي

كانت البداية من الخيال الأدبي قبل أن يتحوّل إلى منجز علمي، حيث كتبت الروائية الإنجليزية ماري شيلي Mary Shelley ( 1797 -

1851م) رواية "فرانكنشتاين" التي تحدثت فيها عن العالم فيكتور فرانكنشتاين الذي قام بصنع كائن وبعث فيه الحياة بأجزاء جثث الموتى التي جمعها من القبور باستخدام الصواعق، غير أن المسخ ﴿الوحش﴾ - كما تصفه ماري- انتهى إلى كراهية صانعه والانتقام منه بسبب مظهره البشع فخاطبه قائلاً: "امتلاً قلبي كرها لك يا فرانكنشتاين لأنك جئت بي إلى عالم لن يقبل بي أبداً" (شيلي ماري، 2012). وقدم الكاتب ألدوس هسكلي (1894-1963م) في روايته "عالم رائع جديد" التي كتبها عام 1931م صورة لما سيحصل في المستقبل بفضل التطور العلمي، حيث يصبح ممكناً عمل نُسخ من الإنسان، والاستغناء عن الزواج وتكوين الأجنة في الأنابيب والزجاجات بطريقة علمية بدلا من تكوينها في الأرحام (أنظر، هسكلي، 1999). إضافة إلى ما قدمته السينما وجسّدته المسارح والأفلام الأوروبية.

فبعدها «ظهر مفهوم الاستنساخ في الثقافة العامة إما بطريقة كوميدية أو شريرة من خلال السينما. في فيلم الخيال العلمي الكوميدي (النائم) 1973 يحبط البطل مؤامرة لاستنساخ طاغية قتله قوات متمردة. وفي فيلم (رجال من البرازيل) 1978 يحاول طبيب نازي استنساخ أدولف هتلر» (أحمد أبو عرب، 2010: 169) ليواصل فنانو هوليوود التفنن في الإنتاجات السينمائية، وكان أهمها فيلم "سبليس" Splice (لصق). وفيلم تعددية Multiplicity يجد البطل (وهو مهندس معماري) صعوبة في التوفيق بين عمله وأسرته والراحة، فيقرر عمل نسخ باللجوء إلى عالم وراثه للحصول على نُسخ، وينجح في الحصول على نسخة كبديل عنه في المنزل، ونسخة أخرى في العمل

ليتمكن المهندس من الاستمتاع بوقته وحياته، ليفاجأ في إحدى الليالي بأحد نسخه يحتل مكانه زوجته لتثور ثائرتة، وتحدث مشاكل بينه وبين زوجته التي احتارت لتغيرات أفعال وأقوال زوجها، لتهجره بعدها.

لينتهي إلى التخلص من نسخه بشحنه في مكان بعيد، ليعود إلى حياته العادية. (شاهين محمد عبد الحميد، 2006: 329) كما تحدث الكاتب تشارلز إيريك في روايته (عالم بلا رجال)، والكاتب بول أندرسون في (كوكب العذارى) عن استنساخ أبناء من النساء دون أن تكون هناك حاجة للرجل المتسلط الأناني، وتعيش النساء على كوكب الأرض دون رجال. (يسرى وجيه السعيد، 2013: 554) هكذا كانت البداية من خيال الأدباء والفنانين، إلى واقع العلماء وخبائر البيولوجيين.

كانت البداية مع ميلاد النعجة "دوللي" ثورة تضاهي ثورة كوبورنيكوس بل كانت أعظم منها تأثيراً. وقبل أسابيع من هذا النبأ المثير وبالضبط في «01 أبريل 1997 نشرت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية على صفحتها الأولى خبر سيدة ولدت حفيدها بفلوريدا، كانت لها بنت وُلدت بمبايض دون رحم، فقامت أمها بحمل طفلها.» (كولاتا جينا، د ت: 37) وبهذا توالى المفاجآت بعدما تحول الخيال إلى حقيقة، وأصبحت التنبؤات واقعا ظاهرا للعيان.

بعد سلسلة من التجارب «استنسخ العلماء النعجة "دوللي" بطريقة فريدة، وكانهم فجروا قنبلة ذرية بل أن البعض ذهب إلى أن عملية إنتاج تلك النعجة بتلك الطريقة تفوق في آثارها اختراع القنبلة الذرية، حتى أضحي الاستنساخ -بحق- هو قنبلة العصر وخصوصا

عندما يمّس البشر.» (الدمرداش صبري، 2001: 9-10) إذ لم يتم تخليقها بالطرق الطبيعية المألوفة ونعني طريقة التكاثر الجنسي؛ لأنها « خلقت من مواد وراثية أخذت من ضرع نعجة بلغت من العمر ست سنين. وقام ولموت بدمج تلك الخلية ببويضة نعجة أخرى، بعد أن أفرغ البويضة من كل موادها الوراثية، وهكذا أُتيح لمورثات الخلية أن تقيم فيها وتجعلها تنمو وتتطور.» (كولاتا جينا، د: 26) تخليق دوللي هو نمط جديد من الوجود.

تتم عملية الاستنساخ التكاثري بتلقيح البويضة بأكثر من حيوان منوي فتحدث الانقسامات وينشأ عنها نسخ متطابقة وراثيا. أما الاستنساخ العلاجي يعمل على استغلال الأعضاء البشرية والأنسجة والخلايا الجنينية بهدف علاج الأمراض، لأن الهدف من وراء التجارب العلاجية علاج المريض ، كالقضاء على بعض الأمراض كثل انسداد شرايين القلب فنتج الخلايا الجذعية خلايا عضلية للقلب، وتتم العملية بصناعة استنساخيه، من خلال خلايا سليمة في الأصل مأخوذة من عضو مصاب من جسم المريض نفسه، ثم تعديلها وإعادة زرعها فيه.

«لكن حيرة المجتمع ازدادت حين كشف العلماء عن بعض طموحاتهم في التوصل إلى نوع من الاستنساخ الحيوي للإنسان Cloning وكان شعارهم لهذه الفكرة "إعادة أينشتاين إلى الحياة" كذلك صرح العلماء بأنهم يأملون في التوصل، في المستقبل إلى تحديد سلوك الجنين قبل أن يتم الحمل، عن طريق إبعاد أو إضافة الجينات التي تحمل استعدادا لصفات وراثية مرغوب فيه، مثل القوة الجسمانية» (البقصي ناهدة، 1993:

85) ومقابل ذلك يتحفظ بعض العلماء أمام هذه البحوث والتجارب لاعتبارات أخلاقية وقانونية ودينية لحد استنكار الممارسات اللإنسانية في مجال الطب الحيوي؛ خاصة وأن الأمر أصبح يتعلق بهوية الإنسان وكرامته وحرية، حيث أفرز تطور التقنيات مشاكل أخلاقية غير مسبوقه استدعت تدخلا جادا لمختلف الفاعلين داخل المجتمع من رجال القانون والدين والسياسة والأخلاق واستدعيت الفلسفة لتجديد رسالتها ولأداء مهامها الجديدة في فضاءها المستحدث "الأخلاقيات التطبيقية" كفكر وثقافة جديدة تعمل على تنظيم الممارسات ومواكبة مستجدات التطور العلمي والتقني، وتقوم بمساءلة إتيقية لتلك الممارسات.

إن رصد التحولات المعرفية العميقة التي تحققت بوتيرة متسارعة، بالتوازي مع الثورات العلمية دفعت إلى استخدام مصطلح البيويثيقا Bioéthique الذي «يعني مقارنة جديدة حول التفكير في القضايا الأخلاقية داخل مجال الصحة» (Durand Guy، 2005 : 107) فالهدف من وراء "الفكر الأخلاقي الجديد هو ضمان حياة أفضل للإنسان الألفية الثالثة، الذي يسعى إلى التحرر من كل سلطة؛ كونه يعيش عصرا بمزايا لم تكن متوفرة لمن ، وضع جديد بالنسبة للأشكال السابقة من التطور. من هنا أصبحت الحاجة إلى تفعيل الوعي والإرادة الأخلاقية بما تحمله من مبادئ وقيم إنسانية أمرا ضروريا أمام هذا الوضع الجديد والمستحدث على نحو غير مسبوق، .

ورد في "موسوعة الأخلاقيات والفلسفة الأخلاقية": البيويثيقا كلمة جديدة ظهرت لأول مرة بالولايات المتحدة الأمريكية في سبعينات القرن الماضي، وقد صاحب ظهورها تبلور حركات وطموحات وخطابات



وممارسات تسائل، وتحاكم النتائج التي أفرزتها تكنولوجيا الطب والبيولوجيا. كما تأسس على إثر ذلك تبلور الخطاب البيوإتيقي جملة من المفاهيم الجديدة أهمها: تحسين النسل، الموت الرحيم، الحق في الإجهاض، الحق في الانجاب، الأم البديلة، التصرف في الجينوم البشري "لجان الأخلاقيات"... الخاهتم هذا الخطاب المعاصر على أخلاق التطبيقات الطبية والبيولوجية، لا سيما أن العالم في مجال الأحياء ملزم باحترام حدود معينة، لأن الأمر متعلق بقدسية حياة الإنسان خاصة وأن نوعية المشكلات الجديدة تختلف عن المشكلات الكلاسيكية، لهذا أصبح التعامل معها يقتضي الاعتماد على نظريات وقوانين تسير روح التطور، وتؤطر أخلاقيا فضاء الممارسات الطبية.

## خاتمة

تبقى فكرة الإنسان "الكامل" حلم راود وما زال يراود فكر الفلاسفة والعلماء بدءا بأفلاطون، مروراً بكندروسية (1743\_1794) وكابانيس (1757-1808)، وصولاً إلى المعاصرين أمثال هانس جونس (1903-1993)، (هابرماس 1929)، وغيرهم من فلاسفة التحسين، وكذا علماء الوراثة. وحقيقة القول أن هذه الثورة التكنولوجية، وإفرازاتها خاصة في ميدان الهندسة الوراثية. تجعلنا نحزم قائلين: إذا كان إله نيتشه قد مات فإن إنسانه الأعلى (السوبرمان) ما زال حيا في عقول فلاسفة "التحسين" وما زال حاضرا في مخابر العلماء والبيولوجيين. فهل ستتحقق آمال وطموحات هؤلاء في تحقيق مشروع "الإنسان الأرقى"؟ وماذا وراء هذا المشروع الهادف للتنقية الجينية؟

## شروح

1- (أنظر الشرح 1) - يقصد بالتطور التبدل التدريجي بتأثير الظروف الخارجية، ويعلل العلماء نشوء الأنواع الحية بقانون تنازع البقاء، وقانون الانتخاب الطبيعي (داروين). أنظر جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982، ص 294-295.

### قائمة المراجع باللغة العربية

أحمد أبو عرب، (2010). الهندسة الوراثية بين الخوف والرجاء، (د-ط). مصر: دار الفوائد للنشر والتوزيع.

تدهوندرتش، (د-ط-ت). دليل أكسفورد للفلسفة، تر: نجيب الحصادي، ليبيا: المكتب الوطني للبحث والتطوير.

جان شالين، (2005). الإنسان نشوؤه وارتقاؤه تع: الصادق قسومة، ط1. سوريا: دار بترا للنشر والتوزيع.

الجاويش روجيه، (2008). الأخلاقيات في الطب (مدخل إلى مقارنة فلسفية)، ط1. بيروت: نوفل.

جينا كولاتا ، (د ت). المتسخة -الطريق إلى دولي واستشراف الواقع-، تر:نجيبالحصادي، مصر: الإدارة العامة للمعاهد والمراكز المهنية العليا.

داروين تشارلز، (2004). صراع الأنواع، تر: مجدي محمود المليجي، ط1. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

الدوس هسكلي، (1999). عالم رائع جديد. تر: شريف خاطر، مصر: الهيئة المصرية العامة.

صبحي أحمد محمود وزيدان محمد فهمي، (1993). فيلسفة الطب، (د-ط). بيروت: دار النهضة العربية للطباعة.

صبري الدمرداش، (2001). الاستنساخ قبله العصر، ط2. الرياض: مكتبة العبيكان.

- عادل عوض، (2011). الأصول الفلسفية لأخلاقيات الطب، (د-ط). الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة.
- عبد الرحمن بدوي. (1975). خلاصة الفكر الأوروبي -نيتشه-، ط5. الكويت: وكالة المطبوعات.
- عبد الرزاق بلعقروز، (2010). نيتشه ومهمة الفلسفة، ط1. الجزائر: منشورات الإختلاف.
- عبد السلام علي جعفر صفاء، (1999). محاولة جديدة لقراءة نيتشه، مصر: دار المعرفة الجامعية.
- عمر بوفتاس، (2011). البيويثيقا"الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا، المغرب: إفريقيا الشرق.
- فريدريك نيتشه، (2011). إرادة القوة "محاولة لقلب كل القيم"، (د-ط). المغرب: إفريقيا الشرق.
- فؤاد زكريا، (1975). آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- كمال البكاري، (2000). ميتافيزيقا الإرادة، ط1. بيروت: دار الفكر العربي الحديث.
- مات ريديلي، تر: محمد فتحي خضر. الجينوم "قصة حياة الجنس البشري"، ط1. مصر: مؤسسة هندواوي للتعليم والثقافة.
- ماري شيلي، (2012). فرانكنشتاين، تر: فائقة جرجس حنا، ط1. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- محمد عبد الحميد شاهين. (2006). الاستنساخ نهاية عصر الرومانسية. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون.
- ناهدة البقصمي، (1993). الهندسة الوراثية والأخلاق، الكويت: المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب.
- نيتشه فريدريك. (1938). هكذا تكلم زرادشت، تر: فيلكس فارس، (د-ط). الإسكندرية: مطبعة جريدة البصير.

وجدي عبد الفتاح سواحل، (2006). "الهندسة الوراثية والتقنية الحيوية.. رؤية عربية". عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد 35 العدد 2.

ول ديوارنت. (1988). قصة الفلسفة، تر: فتح الله المشعشع. بيروت: مكتبة المعارف.

يسرى وجيه السعيد. (2013). "إشكاليات وهموم أخلاقية حول التقنية". تحرير سمير بلكفيف، الفلسفة الأخلاقية بين سؤال المعنى ومأزق الإجراء، ط1. الجزائر: منشورات الاختلاف .

#### قائمة المراجع باللغة الأجنبية

Friedrich Nietzsche. (1971). Par-delà bien et le mal. France: Edition Gillimard.

Friedrich Nietzsche. (2012). Ainsi parlait Zarathoustra. Paris: La gayascienza.

Guy Durand. (2005). Introduction Général a la Bioéthique, concept et outil. Montréal: Editions Fides.